السيل العرم
(قوم تبع، قوم سبأ، سد مأرب)

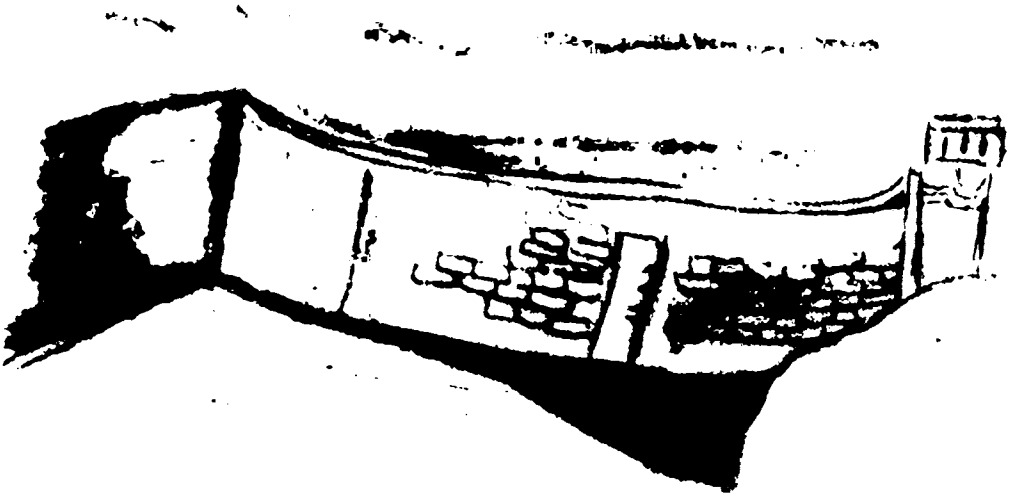

نسبهم

سبأ قبيلة معروفة في أداني اليمن.

موقعهم الجغرافي

مسكنهم بلدة يقال لها (مأرب)[1].

صفاتهم

الكفر بنعم الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى ، وعبادة غيره.

حياتهم

قال الله تعالى ﴿لَقَدْ كَانَ لِسَبَإٍ فِي مَسْكَنِهِمْ ءَايَةٌ ۖ جَنَّتَانِ عَن يَمِينٍ وَشِمَالٍ ۖ كُلُوا مِن رِّزْقِ رَبِّكُمْ وَاشْكُرُوا لَهُ ۚ بَلْدَةٌ طَيِّبَةٌ وَرَبٌّ غَفُورٌ﴾ إلى قوله تعالى: ﴿فَقَالُوا رَبَّنَا بَاعِدْ بَيْنَ أَسْفَارِنَا وَظَلَمُوا أَنفُسَهُمْ فَجَعَلْنَاهُمْ أَحَادِيثَ وَمَزَّقْنَاهُمْ كُلَّ مُمَزَّقٍ ۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِّكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ﴾ [سبأ:١٥-١٩].

قال علماء النسب، منهم محمد بن إسحاق: اسم سبأ: عبد شمس بن يشجب ابن يعرب بن قحطان، قالوا: وكان أول من سبى في العرب، فسمي سبأ لذلك، وكان يقال له: الرائش، لأنه كان يعطي الناس الأموال من متاعه. قال السهيلي: ويقال: إنه أول من تتوج. وذكر بعضهم: أنه كان مسلمًا، وكان له شعر بشر فيه بوجود رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فمن ذلك قوله:

سيملك بعدنا ملكا عظيما ... نبي لا يرخص في الحرام
ويملك بعده منهم ملوك ... يدينون العباد بغير ذام
ويملك بعدهم منا ملوك ... يصير الملك فينا باقتسام

(١). انظر: تفسير السعدي (١/٦٧٧).

ويملك بعد قحطان نبي ... تقي خبتة خير الأنام
يسمى أحمدا يا ليت أني ... أعمر بعد مبعثه بعام
فأعضده وأحبوه بنصري ... بكل مدجج وبكل رام
متى يظهر فكونوا ناصريه ... ومن يلقاه يبلغه سلامي

حكاه ابن دحية في كتابه (التنوير في مولد البشير النذير).

وعبدالله بن العباس يقول: إن رجلًا سأل النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، عن سبأ: ما هو؟ أرجل أم امرأة أم أرض؟ قال: «بل هو رجل ولد عشرة، فسكن اليمن منهم ستة، وبالشام منهم أربعة، فأما اليمانيون: فمذحج، وكندة، والأزد، والأشعريون، وأنمار، وحمير. وأما الشامية: فلخم، وجذام، وعاملة، وغسان»[1].

والمقصود: أن سبأ يجمع هذه القبائل كلها، وقد كان فيهم التبابعة بأرض اليمن، واحدهم تبع، وكان لملوكهم تيجان يلبسونها وقت الحكم، كما كانت الأكاسرة ملوك الفرس يفعلون ذلك، وكانت العرب تسمي كل من ملك اليمن مع الشحر وحضرموت تُبَّعًا، كما يسمون من ملك الشام مع الجزيرة قيصرًا، ومن ملك الفرس كسرى، ومن ملك مصر فرعون، ومن ملك الحبشة النجاشي، ومن ملك الهند بطليموس، وقد كان من جملة ملوك حمير بأرض اليمن بلقيس، وقد قدمنا قصتها

(١). أخرجه أحمد (٥/٧٥ رقم٢٨٩٨)، وفي فضائل الصحابة (٢/٨٦٥ رقم١٦١٦)، والحاكم (٢/٤٥٩ رقم٣٥٨٥)، وقال: هذا حديث صحيح الإسناد ولم يخرجاه. ووافقه الذهبي. وحسنه محققو المسند.

مع سليمان عَلَيْهِ السَّلَامُ، وقد كانوا في غبطة عظيمة وأرزاق دارة، وثمار وزروع كثيرة، وكانوا مع ذلك على الاستقامة والسداد وطريق الرشاد، فلما بدلوا نعمة الله كفرًا، أحلوا قومهم دار البوار.

والمقصود: أنهم لما عدلوا عن الهدى إلى الضلال، وسجدوا للشمس من دون الله، وكان ذلك في زمان بلقيس وقبلها أيضًا، واستمر ذلك فيهم حتى أرسل الله عليهم سيل العرم، كما قال تعالى ﴿فَأَعْرَضُوا۟ فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ سَيْلَ ٱلْعَرِمِ وَبَدَّلْنَٰهُم بِجَنَّتَيْهِمْ جَنَّتَيْنِ ذَوَاتَىْ أُكُلٍ خَمْطٍ وَأَثْلٍ وَشَىْءٍ مِّن سِدْرٍ قَلِيلٍ ﴿١٦﴾ ذَٰلِكَ جَزَيْنَٰهُم بِمَا كَفَرُوا۟ ۖ وَهَلْ نُجَٰزِىٓ إِلَّا ٱلْكَفُورَ﴾ [سبأ:١٦-١٧].

ذكر غير واحد من علماء السلف والخلف من المفسرين وغيرهم: أن سد مأرب كان صنعته، أن المياه تجري من بين جبلين، فعمدوا في قديم الزمان فسدوا ما بينهما، ببناء محكم جدًّا، حتى ارتفع الماء، فحكم على أعالي الجبلين، وغرسوا فيهما البساتين والأشجار المثمرة الأنيقة، وزرعوا الزروع الكثيرة. ويقال: كان أول من بناه سبأ بن يعرب، وسلط إليه سبعين واديًا يفد إليه، وجعل له ثلاثين فرضة يخرج منها الماء، ومات ولم يكمل بناؤه، فكملته حمير بعده، وكان اتساعه فرسخًا في فرسخ، كانوا في غبطة عظيمة، وعيش رغيد، وأيام طيبة. حتى ذكر قتادة وغيره: أن المرأة كانت تمر بالمكتل على رأسها، فيمتلئ من الثمار مما يتساقط فيه من نضجه وكثرته، وذكروا أنه لم يكن في بلادهم شيء من البراغيث ولا الذواب المؤذية، لصحة هوائهم، وطيب فنائهم، كما قال تعالى: ﴿لَقَدْ كَانَ لِسَبَإٍ فِى مَسْكَنِهِمْ ءَايَةٌ ۖ جَنَّتَانِ عَن يَمِينٍ وَشِمَالٍ ۖ كُلُوا۟ مِن

﴿رِّزْقِ رَبِّكُمْ وَاشْكُرُوا لَهُ ۚ بَلْدَةٌ طَيِّبَةٌ وَرَبٌّ غَفُورٌ﴾ [سبأ:١٥]، وكما قال تعالى ﴿وَإِذْ تَأَذَّنَ رَبُّكُمْ لَئِن شَكَرْتُمْ لَأَزِيدَنَّكُمْ وَلَئِن كَفَرْتُمْ إِنَّ عَذَابِي لَشَدِيدٌ﴾ [إبراهيم:٧].

فلما عبدوا غير الله، وبطروا نعمته، وسألوا بعد تقارب ما بين قراهم، وطيب ما بينها من البساتين، وأمن الطرقات، سألوا أن يباعد بين أسفارهم، وأن يكون سفرهم في مشاق وتعب، وطلبوا أن يبدلوا بالخير شرًّا، كما سأل بنو إسرائيل بدل المن والسلوى: البقول والقثاء والفوم والعدس والبصل، فسلبوا تلك النعمة العظيمة، والحسنة العميمة، بتخريب البلاد والشتات على وجوه العباد، كما قال تعالى ﴿فَأَعْرَضُوا فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ سَيْلَ الْعَرِمِ﴾ [سبأ:١٦]، قال غير واحد: أرسل الله على أصل السد الفار، وهو الجرذ، ويقال: الخلد. فلما فطنوا لذلك، أرصدوا عندها السنانير، فلم تغن شيئًا، إذ قد حم القدر، ولم ينفع الحذر، كلا لا وزر. فلما تحكم في أصله الفساد سقط وانهار، فسلك الماء القرار، فقطعت تلك الجداول والأنهار، وانقطعت تلك الثمار، وبادت تلك الزروع والأشجار، وتبدلوا بعدها برديء الأشجار والأثمار، كما قال العزيز الجبار ﴿وَبَدَّلْنَاهُم بِجَنَّتَيْهِمْ جَنَّتَيْنِ ذَوَاتَيْ أُكُلٍ خَمْطٍ وَأَثْلٍ﴾ [سبأ:١٦]، قال ابن عباس ومجاهد وغير واحد: هو الأراك، وثمره البرير، وأثل وهو الطرفاء.

وقيل: يشبهه، وهو حطب لا ثمر له ﴿وَشَيْءٍ مِّن سِدْرٍ قَلِيلٍ﴾ [سبأ:١٦]، وذلك لأنه لما كان يثمر النبق كان قليلًا، مع أنه ذو شوك كثير، وثمره بالنسبة إليه، كما يقال في المثل: لحم جمل غث، على

رأس جبل وعر، لا سهل فيرتقى، ولا سمين فينتقل[1]. ولهذا قال تعالى: ﴿ذَٰلِكَ جَزَيْنَٰهُم بِمَا كَفَرُوا۟﴾ [سبأ:١٧]، أي: إنما نعاقب هذه العقوبة الشديدة من كفر بنا، وكذب رسلنا، وخالف أمرنا، وانتهك محارمنا، وقال تعالى: ﴿فَجَعَلْنَٰهُمْ أَحَادِيثَ وَمَزَّقْنَٰهُمْ كُلَّ مُمَزَّقٍ﴾ [سبأ:١٩]، وذلك أنهم لما هلكت أموالهم، وخربت بلادهم احتاجوا أن يرتحلوا منها، وينتقلوا عنها، فتفرقوا في غور البلاد ونجدها، أيدي سبأ شذر مذر، فنزلت طوائف منهم الحجاز، وهم خزاعة نزلوا ظاهر مكة، ومنهم المدينة النبوية اليوم، فكانوا أول من سكنها، ثم نزلت عندهم ثلاث قبائل من اليهود: بنو قينقاع، وبنو قريظة، وبنو النضير، فحالفوا الأوس والخزرج، وأقاموا عندهم، ونزلت طائفة أخرى منهم الشام، وهم الذين تنصروا فيما بعد، وهم غسان وعاملة وبهراء ولخم وجذام وتنوخ وتغلب وغيرهم.

وقد ذكر محمد بن إسحاق في كتاب (السيرة): أن أول من خرج من اليمن قبل سيل العرم عمرو بن عامر اللخمي، وكان سبب خروجه من اليمن: أنه رأى جرذًا يحفر في سد مأرب، الذي كان يحبس عليهم الماء، فيصرفونه حيث شاءوا من أرضهم، فعلم أنه لا بقاء للسد على ذلك، فاعتزم على النقلة عن اليمن، فكاد قومه فأمر أصغر ولده إذا أغلظ عليه ولطمه، أن يقوم إليه فيلطمه، ففعل ابنه ما أمره به. فقال عمرو: لا أقيم ببلد لطم وجهي فيه أصغر ولدي، وعرض أمواله، فقال أشراف

(١). هذه الأوصاف وردت في حديث أم زرع، الذي أخرجه البخاري (٢٧/٧ رقم٥١٨٩)، ومسلم (١٨٩٦/٤ رقم٢٤٤٨).

من أشراف اليمن: اغتنموا غضبة عمرو، فاشتروا منه أمواله. وانتقل في ولده وولد ولده. وقالت الأزد: لا نتخلف عن عمرو بن عامر فباعوا أموالهم، وخرجوا معه فساروا حتى نزلوا بلاد عك مجتازين، يرتادون البلدان فحاربتهم عك، فكانت حربهم سجالًا.

قال: فارتحلوا عنهم، فتفرقوا في البلاد، فنزل آل جفنة بن عمرو بن عامر الشام، ونزل الأوس والخزرج يثرب، ونزلت خزاعة مراد، ونزلت أزد السراة السراة، ونزلت أزد عمان عمان، ثم أرسل الله تعالى على السد السيل فهدمه، وفي ذلك أنزل الله هذه الآيات. وقال غيره: كانت امرأته طريفة بنت الخير الحميرية كاهنة، فأخبرت بقرب هلاك بلادهم، وكأنهم رأوا شاهد ذلك في الفأر، الذي سلط على سدهم، ففعلوا ما فعلوا. والله أعلم.

وليس جميع سبأ خرجوا من اليمن، لما أصيبوا بسيل العرم، بل أقام أكثرهم بها، وذهب أهل مأرب الذين كان لهم السد، فتفرقوا في البلاد، وهو مقتضى الحديث المتقدم عن ابن عباس: أن جميع قبائل سبأ لم يخرجوا من اليمن، بل إنما تشاءم منهم أربعة، وبقي باليمن ستة، وهم مذحج وكندة وأنمار والأشعريون، وأنمار هو أبو خثعم وبجيلة وحمير، فهؤلاء ست قبائل من سبأ أقاموا باليمن، واستمر فيهم الملك والتبابعة، حتى سلبهم ذلك ملك الحبشة بالجيش الذي بعثه صحبة أميريه أبرهة وأرياط، نحوًا من سبعين سنة، ثم استرجعه سيف بن ذي يزن الحميري، وكان ذلك قبل مولد رسول الله ﷺ بقليل. ثم أرسل رسول الله ﷺ إلى أهل اليمن عليًّا وخالد بن الوليد، ثم أبا موسى الأشعري

ومعاذ بن جبل، كانوا يدعون إلى الله تعالى، ويبينون لهم الحجج، ثم تغلب على اليمن الأسود العنسي، وأخرج نواب رسول الله ﷺ منها، فلما قتل الأسود استقرت اليد الإسلامية عليها في أيام أبي بكر الصديق رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ[1].

العبر والعظات المستفادة

١. وجوب امتثال أمر الله وطاعته، واجتناب نهيه ومعصيته.

٢. جحود ونكران النعم دون الرجوع للحق وشكر النعم، لأن الله يمهل ولا يهمل، فهم كانوا في رغد من العيش، وسعة في الرزق، وطيب في المكان، وكانوا مستمرين في جحدهم لفضل ربهم، فأمهلوا، ثم نزلت بهم عقوبة الله.

٣. الصبر علىٰ طاعة الله، وما يترتب عليها من تكاليف، فإن عاقبة الصبر حسنة في الدنيا والآخرة.

٤. عدل الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ، وما نزلت بقوم عقوبة إلا بسبب ذنوبهم، والتهاون في شأن دين الله.

٥. حكمة الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ، فقد يسلط أضعف المخلوقات علىٰ أعتىٰ الخلق.

---

(١). انظر: البداية والنهاية (٣/١٠٧-١١٦).